علاقات الخليج العربي

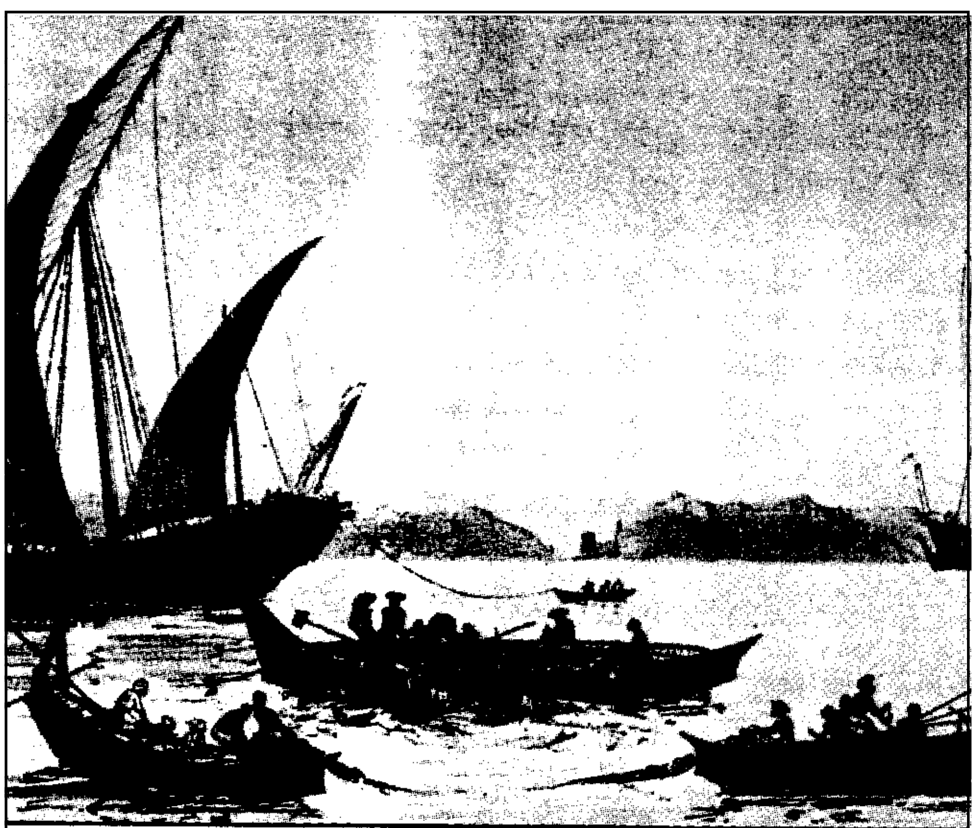
بشبه القارة الهندية

في فترة صدر الإسلام

الدكتورة نجدة خماش

إن المعلومات التي لدينا حول علاقات منطقة الخليج العربي بشبه القارة الهندية في فترة صدر الاسلام هي معلومات قليلة متناثرة، ولكنها تسمح لنا بالوصول الى استنتاجات هامة حول الدور الكبير الذي لعبته القبائل العربية التي كانت قاطنة في شبه الجزيرة العربية وخاصة منطقة الخليج العربي في الفتوح التي وصلت وامتدت في خلافة الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) الى شبه القارة الهندية، كما ان هذه المعلومات تساعدنا في الوصول الى استنتاجات لها أهميتها في مجال العلاقات التجارية.

كان العامل الأساسي في هذا الانجاز الضخم الذي حققته القبائل العربية المقيمة في منطقة الخليج، هو الاسلام الذي كان يهدف في مراحل الدعوة وفي كل تعليماته تحقيق وحدة القبائل العربية، و



مظاهر التوحيد في حياة الدعوة في المؤاخاة بين المهاجرين والانصار وفي اهدار الدماء التي كانت في الجاهلية ، وفي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تنفي العصبية وتنكر الدعوة لها . واذا كانت العرب قد ارتدت إما عامة أو خاصة اثر وفاة الرسول الكريم (ﷺ) فإن نجاح ابي بكر خلال عام واحد تقريبا في القضاء على حركة المرتدين كان تثبيتا للاسلام ومدا له الى الأطراف التي بدا وكأنها قد لُقِّنَتَ الدين كما لقنته المراكز القريبة من مكة والمدينة . كما ان حروب الردة مع ما رافقها من خطر على كيان الدولة الناشئة ، حققت نوعا من الاختلاط بين العرب انفسهم ، فقد مضت جيوش الخلافة الى اليمن والبحرين والى عمان ونجد ، وانتهى الأمر بها الى الظفر ، ولكن هذه الجيوش لم تحقق ظفرا ماديا فحسب وانما حققت ما كان مقدرا لها في طريق الوحدة ، فإذا الجنود لا يعودون جميعهم الى بلادهم أو مجتمعاتهم أو قبائلهم ، وانما يظلون في هذا المجتمع الجديد الذي انشأوه ، يمتزجون به ويختلطون معه ويشاركونه الحياة ،

ولا تحول القبلية بينهم وبين هذه المشاركة ، إذ لم تعد القبلية هي الرباط الأوحد بين هؤلاء الناس وانما اضحت اخوة العقيدة وصلة الدين هي الرباط الأقوى ، هذا ما نفهمه من حديث الطبري ، ان العلاء الحضرمي قائد الجيوش التي خرجت تحارب المرتدين في البحرين اقفل الناس بعد انتصاره إلا من أحب المقام[1] .

ورغم ان خـروج العـرب من جزيرتهم اثناء الفتوح لم يكن قبلي الصورة بشكل دقيق ، لأن الخليفة كـان يبعث الى المدن والقبـائـل يستنصرها ويرغبهـا في الجهاد ، فكانت تتوافد عليه الجموع من هنا وهناك ، فيصرفها في الوجهة التي يرى[2] ، فإن الباحث يلاحظ ان القبائل كانت تفصح في بعض الأحيان عن ايثارها منطقة دون أخرى ، وقتال قوم من المشركين دون آخرين ، ووراء هذا الاختيار تكمن نزعات قبلية وعوامل اخرى تتصل بالبيئة والجوار والعادات المألوفة وغير ذلك ، فعندما سأل عمر بن الخطاب سروات بجيلة ووفده : «أي الوجوه أحب اليكم ، قالوا الشام ، فإن اسلافنا بها»[3] . وحين اراد عمر بن الخطاب ندب الناس مع سعد بن أبي وقاص ، اراد أهل اليمن من النخع التوجه الى الشام وكرهوا المسير الى العراق لأن وجه فارس كان من أكره الوجوه الى العرب وأثقلهـا عليهم ، لشدة سلطـانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم[4] ، فاضطر عمر ازاء اصرارهم الى توجيه نصفهم الى العراق والنصف الآخر الى الشام[5] . ولوحظ بصورة عامة ان أهل اليمن كانوا ينزعون الى الشام ومضر تنزع الى العراق[6] ، ونظرا لنزول القبائل العربية منذ العصر الجاهلي على حدود فارس ، ولما كان لها من تجارب سابقة في قتال الفرس ، لم يكن اجرأ على فارس من ربيعة[7] ومن ثم كانت طلائع جيوش العرب في قتال أهل فارس كلها من هذه القبائل[8] .

وعندما توجه سعد بن ابي وقاص الى العراق لحرب فارس ، كان المثنى بن حارثة الشيباني في ثمانية آلاف من ربيعة ، وستة آلاف من بكر بن وائل والفين من سائر ربيعة[9] . وفي سنة ١٤ هـ اختط عتبة بن غزوان البصرة بالقرب من الابلّة[10] التي كانت مرفأ السفن من الصين وما دونها ، وكان فرج الهند أي الابلة كما يذكر المغيرة بن عتيبة قاضي الكوفة اعظم فروج فارس شأنا وأشدها شوكة ، وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر[11] . وقد بدأت البصرة بداية متواضعة ، حيث لم يزد عدد سكانها على ٨٠٠ مقاتل ، ولكنها لم تلبث ان ازدادت اهميتها حين صارت قاعدة للفتوح في بلاد فارس نفسها ، وترتب على ذلك تدفق القبائل العربية

اليها ، فأمر عمر بن الخطاب ، ابا موسى الأشعري(١٧هـ ـ ٢٥هـ) بالخروج اليها وتوزيع الخطط عليهم[١٢] وتمكنت الجيوش الاسلامية المعسكرة في البصرة في امارة ابي موسى الأشعري من توطيد سلطانها على كور دجلة وفتح اصفهان وقم وقاشان[١٣] ، كما اشتركت مع أهل البحرين وعمان في بعض فتوح فارس ، إذ انه عندما ولى عمر بن الخطاب ، عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان ، وجه أخاه الحكم بن أبي العاص في البحر إلى فارس في جيش عظيم من عبدالقيس والازد وتميم وبني ناجية وغيرهم ففتح جزيرة أبركاوان ، ثم صار الى توج ، وفي رواية ابي مخنف ان عثمان بن أبي العاص نفسه قطع البحر الى فارس فنزل توج ففتحها وبنى المساجد فيها وجعلها دارا للمسلمين وأسكنها عبدالقيس وغيرهم[١٤] ، وفي امارة عبدالله بن عامر على البصرة (٢٥ ـ ٣٦هـ) اتسعت جبهة القتال التي كان يقوم بها البصريون وأصبحت قواتهم مسؤولة عن الفتوح في كافة المقاطعات الواقعة شرقي الخليج العربي . فإذا أردنا التعرف على القبائل التي أقامت في البصرة ، وكان لها هذا الدور في الفتوح ، فإننا نجد عند الطبري في معرض حديثه عن استنجاد اشراف أهل الكوفة بمصعب بن الزبير والي البصرة سنة ٦٧هـ ، ذكرا للأخماس التي قسمت اليها البصرة في عهد زياد بن ابيه (٤٥ ـ ٥٣هـ) إذ ولى مصعب ، مالك بن مسمع على خمس بكر بن وائل ، ومالك بن المنذر على خمس عبدالقيس ، والأحنف بن قيس على خمس تميم ، وزياد بن عمرو الأزدي على خمس الازد ، وقيس بن الهيثم على خمس اهل العالية[١٥] . وهذه القبائل كلها ما عدا أهل العالية كانت تقطن في المناطق المحيطة بخليج العرب ، فقد كانت منازل بكر بن وائل تمتد من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة الى البحر فأطراف سواد العراق فالابلة فهيت[١٦] ، أما قبيلة تميم المضرية فكانت ديارها بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة حتى يتصلوا بالبحرين[١٧] ، ووجد في أرض البحرين خلق كثير من العرب من عبدالقيس وبكر بن وائل وتميم[١٨] ، وكانت مواطن عبدالقيس في تهامة ثم خرجوا الى البحرين فزاحموا بكر بن وائل وتميم وقاسموهم في المواطن[١٩] . أما أزد البصرة فهم من أزد عمان ، وقد كان الأزد هم أغلبية سكان عمان ومما يثبت ذلك ان عبدالله بن الزبير عندما كتب الى المهلب بن أبي صفرة أن يستخلف على خراسان ويتوجه الى البصرة لمقاتلة الخوارج الأزارقة ، أمر

بديوان الجند فأحضر وانتخب من ابطال البصرة عشرين ألف رجل فيهم من الأزد ثمانية آلاف رجل، وبقيتهم من العرب(٢٠). وعندما هرب يزيد بن المهلب من سجن عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠١هـ، توجه الى البصرة موطن اسرته من المهالبة ومستقر قبيلته ازد عمان(٢١). وبما اننا نعلم انه بتخطيط البصرة والكوفة انقسم العراق الى ولايتين، كل واحدة مستقلة عن الأخرى في تشكيلاتها ومصادر فيئها وساحات حربها، فإننا نستنتج ان هذه القبائل التي قطنت البصرة كان لها دورها في فتوح فارس وخراسان، وسجستان واصبهان والأهواز(٢٢). وفي خلافة معاوية بن ابي سفيان، أصبحت منطقة البحرين وعمان تابعة اداريا الى والي العراق، وبقيت تابعة طيلة خلافة الأمويين ما عدا خلافة عمر بن عبدالعزيز(٢٣)، مما أدى الى ازدياد في الهجرة من هاتين المنطقتين الى البصرة ومن ثم الى خراسان، إذ تذكر المصادر ان عدد مقاتلة البصرة في خراسان سنة ٩٦هـ مع قتيبة بن مسلم الباهلي كانوا اربعين الفا، من العالية تسعة آلاف، وبكر سبعة آلاف، تميم عشرة آلاف وعبدالقيس اربعة آلاف، والأزد عشرة آلاف(٢٤). وكان هؤلاء المقاتلة مقيمين نتيجة للاجراء الذي اتخذه زياد بن ابيه سنة ٥١هـ عندما ولى الربيع بن زياد الحارثي خراسان، وحول معه من أهل المصرين زهاء خمسين الفا مع عيالاتهم(٢٥) وبما ان مقاتلة الكوفة كانوا سبعة آلاف فقط في خراسان سنة ٩٦هـ فإنه يمكننا أن نستنتج ان زياد بن ابيه نقل ما يزيد على اربعين الفا من مقاتلة البصرة الى خراسان، ومع ذلك نجد ان عدد مقاتلة البصرة في ولاية عبيدالله بن زياد (٥٥ ـ ٦٤هـ) اصبح ثمانين الفا بعد ان كان اربعين الفا، إذ يقول: «لقد وليتكم وما أحصى في ديوان مقاتلتكم الا أربعين ألفا ولا في ديوان عيالاتكم الا سبعين ألفا ولقد أحصى اليوم في ديوان مقاتلتكم ثمانون الفا وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون الفا(٢٦) وهذا يعني استمرار الهجرة من مناطق الخليج العربي الى البصرة، وان الفتوح في الشرق قامت الى حد كبير بجهود مقاتلة هذه القبائل بما في ذلك الفتوح في منطقة السند والهند، سواء تلك التي انطلقت من مكران ثغر السند الذي تم فتحه في ولاية زياد بن ابيه(٢٧) أو تلك التي كانت تنطلق من سجستان التي كانت كذلك ثغرا تنطلق منه جيوش المسلمين نحو الهند وبلاد الترك(٢٨). وكان ولاة سجستان يعينون من قبل الخليفة احيانا أو من قبل ولاة العراق احيانا اخرى(٢٩) وقد تجمع ولاية سجستان

وخراسان لوال واحد، فقد استعمل عبدالملك بن مروان، أمية بن عبدالله بن خالد بن اسيد على خراسان وسجستان وجمعهما الحجاج بن يوسف الثقفي لقتيبة بن مسلم الباهلي[٣٠].

بدأت صلات العرب مع مشارف الهند في عهد الخلفاء الراشدين، لأنه عندما استولى العرب في ولاية عبدالله بن عامر على منطقة هراة، استولوا على ذلك الربع من خراسان المعروف اليوم بأفغانستان[٣١]، كما وصل الأحنف بن قيس الذي اصبح سيد تميم في البصرة الى بلخ، مدينة طخارستان والتي كانت تدعى أم المدن، وهي اليوم من مدن افغانستان الهامة المشهورة بمزارها المعروف بالمزار الشريف[٣٢]. والمعروف ان منطقة افغانستان هي منطقة عبور من الصين الى ايران، أو من ايران الى الهند، ولذلك فإن غزوات المسلمين نحو الهند كانت تتم عبر جبهتين، جبهة خراسان وسجستان، وجبهة مكران، إلا ان فتوح السند تمت عن طريق مكران بقيادة محمد بن القاسم الثقفي الذى استطاع فتح الديبل (كراتشي) بقواته البرية والبحرية التى أمده بها الحجاج بن يوسف الثقفي والتي ساهم فيها مقاتلة البصرة، كما ساهم فيها ٦٠٠٠ من مقاتلة الشام، وقد اختط محمد بن القاسم اثر استيلائه على الديبل مسجدا للمسلمين، وانزلها اربعة آلاف من المقاتلة. وبعد مقتل الملك داهر غلب محمد بن القاسم على بلاد السند، وأصبحت الحملات توجه منها الى الهند[٣٣].

وباستيلاء العرب على الديبل سيطر العرب على جميع الموانيء الهامة في طريق الملاحة بين الهند والغرب، وأصبح الخليج العربي لأول مرة تحت سيطرة عربية اسلامية كاملة بعد ان كانت البحرين[٣٤] والساحل الشرقي والشمالي تحت سيطرة الفرس الذين كثيرا ما أساءوا معاملة العرب. وكان من نتيجة وقوع بلاد فارس والعراق والشام ومصر تحت سلطان العرب المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين، ثم امتداد هذه الدولة من السند حتى الاندلس في خلافة بني أمية، ان انعكس ذلك على النشاط الاقتصادي بين الشرق والغرب، فمن المعروف ان التجارة بين الشرق والغرب كانت تتبع منذ القديم طريقين رئيسيين، طريق البحر الأحمر ومصر، وطريق الخليج العربي والشام[٣٥] وعندما تسيطر دولة واحدة على ايران والعراق والشام ومصر كان الطريق البحري المار من خليج العرب يزدهر عادة على حساب البحر الأحمر ومصر، لأن الخليج

العربي يكمله الفرات ودجلة وهما ممران طبيعيان للملاحة بين حوض البحر المتوسط وشرقي آسيا ، كما انه طريق أقصر وآمن من البحر الأحمر ، لأن النصف الشمالي من البحر الأحمر الذي يمتد حوالي ١٢٠٠ ميل ينطوي على عقبات كأداء أهمها الشعاب المرجانية التي تحف بكلا الساحلين وتمتد هذه الشعاب في بعض المواضع بعيدا في البحر فتعرقل الملاحة وتعين على القرصنة ، كما ان البحر يكاد يكون خلوا من الموانىء الصالحة التي يمكن أن يلجأ اليها البحارة حين هبوب العواصف أو تعرضهم للقرصنة ، وكانت الملاحة شمالا صعبة على الملاحين الاوائل لأن الرياح الشمالية تهب جنوبا على هذا الجانب من البحر طوال العام[٣٦] . ولذلك أقام العرب طرقا للقوافل على طول الساحل الغربي من جزيرتهم ، أما وقد توحدت هذه المناطق تحت سلطة العرب بما في ذلك جزيرة العرب فقد ازدهر الطريق البحري المار من الخليج العربي ونشطت العلاقات التجارية بين الخليج والهند والشرق الأقصى ، بعد ان تناقصت الى حد ما في العهود الساسانية نظرا لتشجيع الرومان ثم البيزنطيين الذين سيطروا على الشام ومصر ، التجارة عن طريق البحر الأحمر ، والذي كان رغم بعده ورغم العقبات أسلم وأبعد عن سيطرة الساسانيين ، ولذلك اصبحت التجارة المارة بالخليج مقتصرة بالدرجة الأولى على ما تستهلكه الامبراطورية الساسانية ، ويرى بعض الباحثين أن هذه التجارة قاست كثيرا لسقوط الامبراطورية الساسانية حيث تحطمت على إثر ذلك ارستقراطيتها التي كانت أهم مستهلك لسلعها وللكماليات التي تستورد من الهند ، ولأن العرب الذين حلوا محلهم كانوا يفضلون المنتجات المحلية الرخيصة[٣٧] . واذا كان هذا الرأي ينطبق على السنوات الأولى من الفتوح واضطراب الوضع في العراق قبل توطيد سلطان العرب على العراق والشام ومصر والذي لم يتجاوز السنوات العشر ، فإنه لا ينطبق على الواقع ككل ذلك ان العرب تركوا للتجار والصناع والفلاحين حرية مزاولتهم لأعمالهم وأوجدوا الشروط التي تساعدهم على مزاولتها ، وحينما سيطر العرب على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني والبيزنطي ، ولم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية ، ساعد ذلك التاجر على التحرك والتجول في الأراضي الاسلامية كلها .

واذا كان العرب قد قضوا على الساسانيين وعلى ارستقراطيتهم ، فإنهم لم ينجحوا في القضاء على الامبراطورية البيزنطية التي خسرت

الشــام ومصر اولا ثم الشمــال الافـريقي ، ولم يكن باستطـاعـة الامبراطورية البيزنطية الاستغناء عن بضائع الشرق ، ولذلك نجد انه رغم الحمــلات وغــزوات الصــوائــف والشواتي التي كان يوجهها الخلفاء ضد البيزنطيين ، فإن حالة الحرب لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات ، لأننا لا نستطيع ان نسبغ على حياة القرون الوسطى ظواهر هي من طبيعـة العلاقـات السياسيـة الحديثة ، فابن جبير مثلا في رحلته يتحدث عن اتصال تجاري مزدهر كان يقوم بين المدن الاسلامية في الشام وميناء الصليبيين في عكـا خلال الحروب الصليبية(٣٨) وهو اتصال لم يكن يتأثر اطلاقا بالأعمال العسكرية الناشبة حينئذ بين الأمراء المتنازعين وجيوشهم ، وكذلك الأمر بين العرب والبيزنطيين ، فإن فتح الشام ومصر لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة ولمْ تتوقف العلاقات التجارية بينهما ، ولعل رواية ابي عبيد في كتابه الأموال تشير الى هدا الاستمرار في التبادل التجاري ، فهو حـين يتطرق الى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب ، يذكر «انه كان من مذهب عمر بن الخطاب فيما وضع من ذلك ، انه كان يأخذ من التجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ومن أهل الذمة نصف العشر (أي خمسة دراهم عن كل مائة درهم) ويأخذ العشر على تجارة اهل الحرب ، وانه انما فرض عليهم العشر لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم» . وبعد هذا ببضعة سطور يحدد من هم اهل الحرب على نحو لا يقبل اللبس فيقول : «الروم كانوا يقدمون الى الشام(٣٩) . كما يـذكر البـلاذري وابن قتيبة ان القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض العــرب وتــأتي من قبلهم الدنانير(٤٠) وتشير الأدلة المختلفة ان حكام القسطنطينية في هذه الفترة لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر إلا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن لأن المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائيا ، ويبدو ان الحكام البيزنطيين حي سنة ٦٩٢م/٧٣هـ كـانـوا يـرفضـون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ذلك ان العرب تركوا ممارسة التجارة البحرية في الشام ومصر لمن كانوا يمـارسونهـا سـابقـا من سكـان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ، وبقيت اللغة اليونانية لغة دواوين الخراج ، واحتفظت اوراق البردى التي كان يصنعها الأقباط في مصر بالشارات والتعابير المسيحية التي كانت مستخدمـة في العهد البيزنطي ، واستمرت دور الضرب

البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٧٣هـ النقد الأساسي المتداول في مصر والشام(٤١) وبقى النقد الذهبي البيزنطي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط(٤٢) و في التجارة مع الهند(٤٣) . ولذلك لم يطبق حكام القسطنطينية قوانين الملاحة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا في عهد جستنيان الأول واصبح التجار احرارا لا رقابة من الدولة عليهم (٤٤) وظهر قانون الملاحة الروماني الذي اصبح بموجبه ربابنة السفن احرارا في أن يتوجهوا الى المكان الذي يريدونه من أجل أخذ حمولتهم(٤٥) ، ومن ثم فإنه يمكن اعتبار القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط ،كما ان كلا من الشام ومصر ازدهرتا اقتصاديا ، فعلاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق قد ازدادت ، لأن الساسانيين الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، تحطمت قوتهم على أيدي العرب ، فعادت لهذا الطريق كذلك اهميته ، كما ان ازالة الحواجز التجارية القديمة بين الشام والعراق ساعدت على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولدينا أدلة على استمرار التجارة الاوربية مع الشرق ، فقد كانت فرنسا المركز التجاري الأساسي للتجار السوريين ، وحتى سنة ٧١٦م/٩٨هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية ، واوراق البردى ، ومنتجات اخرى ، ونجد دليلا على ذلك كما يقول بيرين Pirenne في الامتياز الذي منحه الملك الميروفنجي في تلك السنة لدير كوربي Corbie باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس(٤٦) وهذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من امتيازات في القرن السابع الميلادي .

ولكن لما لم يعد الخليج والبحر الأحمر طريقين متنافسين في بادىء الأمر ، فإن الوضع اختلف نتيجة لاختلاف طبيعة النزاع بين الأمويين والبيزنطيين ما بين ٧٣ ـ ١٣٥هـ/ ٦٩٢ ـ ٧٥٢م . إذ ان الاسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم الاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحتا في البدء ، أما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها فإننا نرى تداخل العامل الاقتصادي ، فبالاضافة الى العداء العسكري البري والبحري اضيفت الحرب الاقتصادية . بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبدالملك الدنانير الذهبية المعربة(٤٧) ، وحينما امر ان تزال الشارات والعبارات المسيحية من اوراق البردى ، وان تعرب دواوين

الخراج[٤٨] ، مما يشير الى ان الأمور التي حاكى فيها الخلفاء الأمويون الادارة البيزنطية ، أو نقلوها بعد التعديل انما هي محاولة عامدة منهم غايتها دراسة الحيثيات واعداد انفسهم للسيطرة على مقدرات دولتهم ، وان عبدالملك اراد ان يحرر الدولة الاسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا ، وان يقيم وحدة اقتصادية مستقلة ، وربما اراد بعمله هذا أن يحقق نوعا من الضغط الاقتصادي ، لاسيما وان رواية المدائني تشير الى ان خالد بن يزيد اشار على عبدالملك بتحريم دنانير الروم ، ومنع التعامل بها ومنع دخول شيء من القراطيس الى بلاد الروم[٤٩] وكان من نتيجة هذه الاجراءات التى اتخذها عبدالملك أن نقض جستنيان الثانى الصلح [٥٠] واتخذ اجراءات اقتصادية طبقها هو وخلفاؤه من بعده ، وإذا كان من الصعب اعطاء صورة متكاملة للنظام الذي طبق ، فإنه يمكن رسم الخطوط العريضة له ، في العودة الى النظام التجاري المقيد الذي كان متبعا في عهد جستنيان الأول ، وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها ، كما ان بيزنطة استخدمت اسطولها لدعم ذلك النظام ، وهنالك من الاسباب ما يدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي سنة ٧١٥ و٩٧/٧١٦ و٩٨هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية ضد الشام ومصر ، والافتراض كما يقول هايد Heyd بأن هذا النظام قد طبق ، يقوى حينما نعلم ان آخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس Fos كانت سنة ٩٨ هـ/٧١٦ م ، كما ان مملكة لمبارديا اوقفت استخدامها لأوراق البردى[٥١] . أي أن البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة المنطلقة من الأراضي العربية إلا اذا اتبعت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة ، وقد يفسر هذا توجه اسطول اسلامي ضخم في اواخر سنة ٩٩هـ نحو القسطنطينية[٥٢] إذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارة الخارجية في الشام ومصر ، إلا انه لم يكن باستطاعة بيزنطة أن تتخلى عن منتجات العالم العربي الاسلامي ، كما ان التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار المسلمون كانت مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية ، ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين باستقبال التجار المسلمين ، منهما

مرفأ طرابزون Trebizond الذي كان يسمح بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة[٥٣] ويعلق لوبيز Lopez انه على الرغم من اننا لا نملك دليلا واقعيا ، إلا انه ليس ثمة ما يمنعنا من الافتراض ان هذا الاجراء قد يعود الى ٧١٦م/٩٨هـ أو قبل ذلك ، لأن اختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لبيزنطة ، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد ، وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية ، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام المنافسين البحريين لها الى بلاد العراق ، وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح للتجار بدخوله والخروج منه ، لأننا اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة ، نجد ان هذه التعليمات تشير بصراحة الى ان التجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة[٥٤] وربما كان هذا الوضع مطبقا منذ العام ٧١٨/١٠٠هـ فالجامع الذي يقال ان ليون الايسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض[٥٥] .

نستنتج مما تقدم ان طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر استمر استخدامهما حتى حوالي سنة ١٠٠هـ حينما أدت الظروف الدولية الى ان يزداد الاعتماد على الطريق البحري المار بالخليج العربي ، مما ادى الى ازدهار الموانىء المحيطة بهذا الخليج وبالساحل المؤدي الى الهند ، ابتداء من الديبل التي اصبحت مجمع التجار[٥٦] ، الى هرمز فرضة كرمان التي ترفأ اليها المراكب ، ومنها تنقل امتعة الهند الى كرمان وسجستان [٥٧] ، أما سيراف فقد كانت فرضة فارس العظيمة ، ويذكر ابن حوقل ان أهل سيراف والسواحل ربما غاب احدهم عامة عمره في البحر ، وقد بلغه ان رجلا من سيراف الف البحر حتى ذكر انه لم يخرج من السفينة نحو اربعين سنة ، وكان إذا قارب البر اخرج صاحبه فقضى حوائجه في كل مدينة ويتحول من سفينة الى أخرى اذا انكسرت أو احتيج الى اصلاحها ، وقد التقى ابن حوقل بأحد تجار سيراف في البصرة وهو ابو بكر عمر السيرافي الذي كانت له مراكب تتجه نحو الهند والصين والزنج[٥٨] . ويعلق ابن حوقل «انه لا يعلم في جميع بلاد فارس وغيرها سفنا تجرى في بحر فارس (وهو يقصد بذلك بحر الهند) فتخرج عن حد مملكتها وترجع بجلالتها وصيانتها إلا لفارس[٥٩] .

لا شك في ان في قول ابن حوقل الكثير من المغالاة ، لأننا نجد المسعودي يشــير الى اربــاب المــراكب من السيرافيين والعمانيين ومن أهــل البصرة[٦٠] ، كما انه حين يتكلم عن العمانيين الذين يركبون بحر الهند ، يقول: (وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد)[٦١] . وقد كانت صحار قصبة عمان أعمر مدينة فيها وأكثرها مالا ، يذكر الاصطخري انه «لا تكاد تعرف على شاطىء بحر فارس بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار[٦٢] ، وكانت صحار على حد تعبير ياقوت الحموي ، دهليز الصين وخزانة الشرق والعـراق ومغوثـة اليمن[٦٣] .

أما البصرة ، فإنه نظرا لموقعها عند الطرف الشمالي من خليج العرب وعلى اطراف الصحراء فقد كانت تصلها تجارات الولايات الشرقية ، وتجارات الهند ، ثم تقوم بتوزيعها الى سائر الامصار ، وظلت كذلك حتى في العصر العباسي حين انقطع عن أهلها توزيع العطاء وصارت جبايات الـولايات ترسل الى بغداد ، ونظرا للنشاط الاقتصادي الكبير فيها فإن الدولة كانت تهتم بتطهير الخليج العربي من القراصنة واتخذت في عبادان قاعدة للقضاء على نشاطهم وكان اول من رابط بعبادان عباد بن الحصين (ت نحو ٨٥هـ/٧٠٥م) ويذكر ابن الكلبي (ت نحو ٢٠٤هـ) ان الربيع بن صبح الفقيه مولى بنى سعد جمع مالا من أهل البصرة فحصن به عبادان ورابط فيها[٦٤] . وقد استمرت المرابطة فيها الى عصر الاصطخري الذي يقول «ولها على دوام الأيام مرابطون»[٦٥] .

كان أهم ما يجلب من الهند إذا تركنا جانبا الكماليات كالدر والياقوت والكافور والعنبر والافاويـة وجوز الطيب والسنبل والفلفل[٦٦] ، مادة الحديد الـذي كانت تصنـع منه السيوف في اليمن ، ويزود بها العرب بعدئذ[٦٧] وربما كانت تصنع من الحديد ادوات اخرى لم تشر اليها المصادر ، كما ان السيوف الهندية أو الهندوانية كانت معروفة عند العرب بلينها وحدتها وكذلك الرماح ، وينقل القزويني عن ابي الضلع السندي قوله فيما يجلب من الهند بالاضافة الى ما ذكر سابقا :

سيوف ما لها مثل
قد استغنت عن الصيقل
وأرماح إذا مـــا
هزت اهتز بها الجحفل[٦٨]

والراجح ان السيوف الهندية كانت تصنع في الهند وسيلان ثم تصدر الى البصرة[٦٩] .

أما الرماح والاسنة ، فكان العرب يستوردونها من الخط ، وهي المنطقة التي تضم القطيف والعقير وقطر ،

وهي مواضع كانت تجلب اليها الرماح والقنا من الهند فتقوم أو تثقف فيها وتباع للعرب[٧٠] .

بالاضافة الى الحديد والسيوف والرماح كانت منطقة الخليج تستورد خشب الساج من الهند ويعتبر خشب الساج من أنفس انواع الخشب ، فهو شديد الاحتمال متى تم اعداده لم ينشق ولم يتشقق أو يتقلص أو يتغير شكله ، وهو عظيم النماء في تلال جنوب الهند وفي بورما وسيام واندونيسيا[٧١] وكان خشب الساج يستورد الى الخليج العربي من الهند منذ اقدم الأزمان وقد عثر عليه بين آثار البابليين والاخمينيين والساسانيين ، ومن الجلي ان ثيوفراستس Theophrastus (حوالي ٣٠٠ قبل الميلاد) يشير اليه حين يقول : «يقولون ان في جزيرة تايلوس Tylus (البحرين) تجاه الساحل العربي ، نوعا من الخشب يبنون به سفنهم ، وانه يكاد يمتنع على البلى اذا كان في ماء البحر ، فهو يبقى أكثر من ٢٠٠ سنة إذا ظل في الماء ، فإذا خرج منه كان اسرع الى التلف وان لم يتطرق اليه الا بعد حين» . وبما انه لم يكن في منطقة الخليج مثل هذا الخشب الطويل البقاء فمن المؤكد تقريبا انه ساج مستورد من الهند[٧٢] .

لم يكن خشب الساج هو الخشب الوحيد المستورد من الهند وانما كانوا يستوردون ايضا خشب النارجيل (جوز الهند) وكان العرب والفرس يستوردونه من الهند وجزرها منذ القديم أو يذهبون الى مواطنها نفسها ويبنون سفنهم فيها[٧٣] .

اذا كانت التجارة البحرية الواردة الى الخليج العربي والصادرة عنه مزدهرة في العصر الأموي ، فإن تولي العباسيين الخلافة دفع بها الى الامام ، لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد وتشجيع الخلفاء العباسيين امتزاج رعاياهم العرب والفرس في وحدة اسلامية لسانها العربية وزاد المتكلمون بالعربية زيادة كبيرة باعتناق الايرانيين الاسلام واصطناعهم اللغة العربية في اغراض الدين والأدب والأعمال الرسمية والتجارة .

د. نجدة خماش
جامعة دمشق

الهوامش

(١) الطبري ، (ابو جعفر محمد بن جرير) (ت٣١٠هـ/٩١٠م) تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ اجزاء تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ج ٣ ص ٣١٢ .
(٢) الطبري ، ج ٤ ص ١٨٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٦٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٤٤ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٤ .
(٦) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٧ .
(٧) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٧ .
(٨) البلاذري ، (أحمد بن يحيى بن جابر) (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ص ٢٤٢ .
(٩) الطبري ، ج ٣ ص ٤٨٦ .
(١٠) شيدت الابلة في العهد السلوقي في ملتقى دجلة العوراء بخليج البصرة باسم (ابولو) المعبود اليوناني ، وحرف العرب لفظ ابولو الى الابلة ، وكانت زمن الفتح العربي قد ابتعدت عن البحر قليلا بسبب رواسب الطمي . مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ج ١ ص ٧٥ .
(١١) الطبري ، ٣٤٨ ، و٥٩٤ . ابن الفقيه (ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني) كتاب البلدان ليدن ، ١٣٠٢هـ/ص ١٨٨ . ابن سعد ، (محمد) (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٣٢٢هـ ، ج ٤ قسم ١ ص ٣ .
(١٢) الدينوري (أحمد بن داود) (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) الاخبار الطوال ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦٠م ص ١١٨ .
(١٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(١٤) المصدر السابق ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ .
(١٥) الطبري ، ج ٦ ص ٩٥ .
(١٦) الهمداني ، (ابو محمد الحسن بن أحمد) (٣٣٤هـ/٩٤٥م) ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ تحقيق محمد الاكوع ، صنعاء ، ٨٤ .
(١٧) عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ ، ج ١ ص١٢٦ .

(١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٨٩ ، الطبري ، ج ٣ ص ٣٠١ . ابن اعثم الكوفي (ابو محمد احمد) (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ١ ـ ٢ ص ١٤٠ .
(١٩) كحالة ، معجم ، ج ٢ ص ٧٢٦ .
(٢٠) البلاذري فتوح ، ص ٠٨٧ الدينوري ، ص ٢٧٢ . كحالة ، معجم ، ج ١ ص ١٦ .
(٢١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٧ ، ٥٨٦ .
(٢٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٢٣) الطبري ، ج ٥ ص ٢١٧ . ابن عبد ربه، العقد الفريد ، ج ٣ ص ٢٣٠ . خليفة بن خياط تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٩١ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ، ج ٢ ص ٥٣٨ .
(٢٤) الطبري ، ج ٦ ص ٥١٢ . البلاذري ، فتوح ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٢٥) البلاذري ، ص ، ٤٠٠ . الطبري ، ج ٥ ص ٢٢٦ .
(٢٦) البلاذري انساب ، الجزء الأول من القسم الرابع ، مؤسسة الدراسات الافريقية الاسلامية ، القدس ، ١٩٧١م ص ١٩٠ . الجزء الثاني من القسم الرابع ، مكتبة المثني ، بغداد ص ١١٦ . فتوح ، ص ٤٢٢ .
(٢٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٤٤ و٣٤٥ .
(٢٨) ابن الاثير (ابو الحسن علي بن ابي الكرم) (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٧٢ . البلخي (ابو زيد احمد بن سهل) كتاب البدء والتاريخ ، باريز ، ١٩١٩م ، ج ٦ ص ٣٤٣ .
(٢٩) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٧١ .
(٣٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٩ ، ٣٩١ ، خليفة ، تاريخ ، ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .
(٣١) Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge I 930, P : 407 .
كان العرب قد قسموا خراسان ارباعا تبعا لمدنها المشهورة ،نيسابور ، مرو ، هراة ، وبلخ .
(٣٢) Ibid. p. 420
(٣٣) البلاذري ، فتوح ، ٤٢٣ ـ ٤٢٧ .
(٣٤) المصدر السابق ، فتوح ، ص ٨٩ . ابن اعثم ، ج ١ ـ ٢ ، ص ١٤٥ .
(٣٥) Gazetteer of the Persian Gulf, Oman, and Central Arabia, Chap. I, P : 10 .
(٣٦) Encyclopeadia Britannica, Art. Red Sea .
(٣٧) صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ٢٥٧ .
(٣٨) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٩م ، ص ٢٦٠ ، ٢٧٦ .
(٣٩) ابو عبيد (القاسم بن سلام) (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، ط ١٤٠١هـ/١٩٨١م الفقرة ١٦٥١ ، ١٦٥٥ .

(٤٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ . ابن قتيبة (محمد بن عبدالله بن مسلم) (ت٢٧٦/٨٨٩) عيون الأخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٤١) البلاذري ، فتوح .

Grohman, Allgemeine Einfhrung in der Arabischen Papyri Vien, 1924, pp. 77, 92. The Kurrah Papyri from Aphrodite, The Oriental Institute, Chicago, 1936, pp. 70 - 72. Archibald Lewis, Naval Power in the Mediterranean. 500.1100, P. 79.

(٤٢) Ibid. p. 81.

(٤٣) صالح العلي ، تنظيمات ، ص ٢٤٢ .

Cosmas Indicopleustes. Christian Topography, p. 81.

(٤٤) Charanis P. The Social Structure of the later Roman Empire, Byzantium, 1944-1945, XVII pp. 50-51.

(٤٥) Archibald Lewis. OP. CIT. p. 83.

(٤٦) Ibid

(٤٧) Ibid. p. 89. Lopez, Mohammed and Charlemagn. A Revision in Speculum, 1943., XVIII, p. 21.

(٤٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٤٩) البلاذري ، ص ٢٤٢ .

(٥٠) Ostrogorsky G. History of the Byzantine State, Tr. by Joan Hussey Oxford, 1956, p. 118. George Hill, The History of Cyprus, vol. I. p. 287.

(٥١) Heyd, Histoir du Commerce ou Levant, Leipsig, 1885, pp. 89 - 92.

(٥٢) Archibald Lewis, OP. CIT. p. 95.

(٥٣) Lopez, Silk Industry in the Byzantine Empire, Speculum, 1945, XX pp. 26 - 27.

(٥٤) Ibid. p. 27.

(٥٥) Archibald Lewis, p. 94.

(٥٦) الاصطخري (الحسن بن احمد) (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م) مسالك الممالك ، ط ١٩٢١م ص ١٧٥ .

ابن حوقل (محمد) ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) صورة الأرض . منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ٢٧٩ .

(٥٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة هرمز .

(٥٨) ابن حوقل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٥٩) المصدر السابق ، ٢٤٤ .

(٦٠) المسعودي ، (ابو الحسن علي بن الحسين) (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ ٤ اجزاء ، دار الاندلس ، ج ١ ص ١٣٢ ، ١٧٦ .

(٦١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢٣ .

(٦٢) الاصطخري ، ص ٢٥ .

(٦٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة صحار .
(٦٤) ياقوت الحموي ، مادة عبادان .
وعباد بن الحصين بن يزيد بن عمرو الحبطي التميمي ، ابو جهضم كان فارس تميم في عصره و ولي شرطة البصرة ايام ابن الزبير وكان مع مصعب ايام قتل المختار وشهد فتح كابل مع عبدالله بن عامر و أدرك فتنة ابن الاشعث .
(٦٥) الاصطخرى ، ص ٣٤ .
(٦٦) القزويني ، (زكريا بن محمد بن محمود) (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) آثار البلاد واخبار العباد ، ص ١٢٨ .
(٦٧) الكندي (يعقوب بن اسحاق) من اوائل القرن الثالث الهجري ، رسالة السيوف ، ص ٣ ب .
(٦٨) القزويني ، ص ١٢٨ .
(٦٩) الكندي ، ص ١٢
(٧٠) القزويني ، ص ٩١ . ياقوت الحموي ، مادة الخط .
(٧١) Enc. Br. Art. Teak.
(٧٢) جورج فضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بدر ، ص ٢٤٥ .
Theophrastus, History of Plants, Tr. by A. Hort, London 1916, Book V, Ch. IV.
(٧٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ Enc. Br. Art. Coconut.

